# العلاقة السياسية وآثرها الحربي بين الدولة المرينية ودولتى الزيانيين والحفصيين ببلاد المغرب في العصر الوسيط

**د. سالم أبوالقاسم غومة**
**قسم التاريخ – كلية الآداب والعلوم – بدر**
**جامعة الجبل الغربي**

**مقدمة:**

لا شك في أن الدول كالأفراد تربطها علاقات أو توجد بينها علاقات قد تسهم في تقاربها أو تباعدها، وهذه العلاقات متعددة منها السياسية والاقتصادية والثقافية، وتعد العلاقة السياسية من أهم تلك العلاقات التي تربط الدولة. فدول بلاد المغرب في العصر الوسيط كان تاريخها كغيرها من الدولة تنسجه كل تلك العلاقات السابقة، ومن تلك الدول الدولة المرينية التي كان لها تاريخ من العلاقة السياسية مع جارتيها دولتى بنى زيان والحفصية هذه العلاقة التى حملت الكثير من الآثار الحربية، والتي سيتم لحديث عنها في مجملة فيما يلي.

وانطلاقا من أهمية دراسة العلاقة السياسية وآثرها الحربى بين الدولة المرينية ودولتى بنى زيان والحفصيين جاءت الرغبة للكتابة في هذا الموضوع، ولكن هناك أمور يستوجب توضيحها، أهمها أن الباحث سيتناول في البداية علاقة دولة بنى مرين بدولة بني زيان ثم علاقتها بالدولة الحفصية، ويرجع ذلك إلى أن بنى زيان كانت علاقتهم السياسية بالمرينيين أسبق في الظهور عن الحفصيين، لذا انتهج البحث هذا السياق في الكتابة. وكذلك سيتبع الباحث أسلوب عرض العلاقة السياسية وبعد ذلك يبين الاثر الحربى المترتب على تلك العلاقة، كما يستوجب التنبيه إلى أن الباحث سيتناول العلاقة السياسية بين تلك الدول وخاصة تلك التي نتج عنها أثر حربى.

اعتمد الباحث في دراسته على المنهج التاريخى القائم على السرد والتحليل.

سيحاول الباحث خلال هذه الدراسة الإجابة على التساؤلات الآتية وهي ما هى العوامل التي ساهمت في بناء هذا النوع من العلاقة، وما هى الآثار الحربية وراء تلك العلاقة ؟

## أولا: العلاقة السياسية وآثرها الحربى بين المرينيين وبني زيان.

نشير هنا إلى ان العلاقة السياسية بين الدولة المرينية والزيانية كانت نتاج نزاع عن السيادة والسيطرة والنفوذ، ولقد ترتب على هذا تأثير حربى بين الطرفين كان نتاجه صداماً مسلحاً وحصاراً انتهى في آخر الأمر بتفوق مرينى على الصعيد السياسى ولحق به التفوق الحربى.

يعد التنافس عن رئاسة قبيلة زناتة والتي هي أصل بنى مرين وبني زيان من العوامل التي أدت إلى ظهور العلاقة السياسية وأثرها الحربى بينهما في وقت مبكر بين الدولتين[1]، وقد أشار ابن خلدون إلى ذلك بقوله: "كان بين هذين الحيين ــ يقصد بني مرين وبني زيان ــ من

المناغاة والمنافسة منذ الآماد المتطاولة بما كانت مجالات الفـريقين بالصـحراء متجـاورة "[2]، "ولما انتقلوا إلى التلول وتغلبوا على المغرب الأقصى والأوسط، لم تزل فتنتهم وأيـام حـروبهم فيها مذكورة"[3].

كما كان لسياسة دولة الموحدين دور في توتر العلاقة السياسية بين بنـي مـرين وبنـي زيان ونتج عن ذلك نزاع حربى. فلقد استغل الموحدون تقرب كلا الطـرفين مـنهم باعتبـارهم يشكلون قوة داخل بلاد المغرب. وأصبحوا يقومون بتوسيع الهوة، وإشعال نـار الفتنـة بينهمـا، وبرز ذلك بوضوح سنة 540هـ\1145م.حيث حرض الموحدون بني زيان على المشاركة معهم في حربهم على المرينيين عند فحص مسون، وترتب على ذلك مقتل شيخ بنى مرين المخضّـب بن عسكر[4].كما قامت في موضع آخر بزعامة الخليفة السعيد بتشجيع المرينيين للقضـاء علـى بني زيان عندما خرجوا عن طاعة الموحدين [5]، كما أن الخليفـة الموحـدي المرتضـى قـام بتحريض بني زيان للقضاء على الخطر المريني، وترتب على ذلك حرب بـين الطـرفين فـي موقعة إيسلي[6] بجوار وجدة[7] سنة 647هـ\1249م[8] انتهت بهزيمة الموحدين وبني زيـان[9]. ولقد ظلت دولة الموحدين تتحكم في تسيير العلاقة السياسية بين بني مرين وبني زيان إلى آخـر أيامها زمن الخليفة الموحدي إدريس الملقب بأبي دبوس الذي طلب نجدة بني زيان لإنقاذ ملكـه من أيدي المرينيين، وترتب على ذلك حرب بينهما عند وادي تلاغ سنة 666هـ\1268م انتهـت بهزيمة بنى زيان[10].

وكذلك تعد مملكة بنى الأحمر بغرناطة من أبرز العوامل التي كان لها أثر واضـحٌ فـي العلاقة السياسية بين المرينيين والزيانيين، فعندما قوية شوكة المرينيين وأصبح لهم نشاط يهـدف إلى التوسع ببلاد المغرب والأندلس خاف بنو الأحمر من ذلك، وبالتالي سعوا إلى توثيق علاقتهم مع الزيانيين ضد ذلك الخطر، وزادت هذه المخاوف بعد تعكر علاقة بنى الأحمر مع المـرينيين

بسبب عدم تخلى بنى الأحمر عن مالقة لهم كما كان متفقا بينهما حيث أصبحت تتوارد أخبار مفادها أن المرينيين جهزوا اسطولاً للعبور للأندلس، وبناء على ذلك قام بنو الأحمر سنة 678هـ\1280م بتحريض يغمراسن ملك بني زيان على إثارة الفتن على حدود المرينية بالمغرب الاوسط، وذلك حتى يثنى المرينيين عن مخططهم، وعندما علم المرينيون بذلك قاموا سنة 680هـ\1281م بتوجيه حملات حربية إلى بني زيان قضوا بها على ما أثاروه من فتن[11]. كما أنه وفي المقابل نرجح أن بنى الأحمر من باب رد الجميل كانوا قد افتعلوا اضطرابات بالأندلس لتخفيف من شدة حصار المرينيين لعاصمة الزيانيين، لذا ومن هذا المنطلق حرص المرينيون على تفكيك أي تحالف سياسى بين بني زيان وبني الأحمر. وهناك من يشكك[12] في وجود مثل هذه التحالفات، بحجة أن يغمراسن ليست له فائدة من تحالفه مع بني الأحمر، وأن دولته لا محالة من تعرضها للهجوم المريني، وكذلك قولهم إن ما أورده ابن خلدون لمثل هذه التحالفات ما هو إلا تبرير لحملة المرينيين على تلمسان. وما نراه هنا أنه لا يمكن استبعاد مثل هذه التحالفات، لأن أبن الأحمر تحالف مع النصارى الذين هم أعداء الإسلام والمسلمين ضد الدولة المرينية، فما المانع من وجود تحالف مع بني زيان، أما القول بإن ابن خلدون يبرر فهذا مستبعد تماما ؛لأنه لم يكن هناك شيء يجبره على ذلك وخاصة أن المرينيين سبق وأن هددوا تلمسان قبل ذلك التحالف السابق.

وأيضا يعتبر التنافس على المراكز المهمة في المغربين الأوسط والأقصى له دور في العلاقة السياسية وأثرها الحربى بين بني مرين وبني زيان، فلقد حاول كلاهما السيطرة عليها، فمثلا مدينة سجلماسة كانت من أهم تلك المراكز، حيث سيطرت عليها الدولة المرينية سنة 653هـ\1255م مما أثار غضب الزيانيين وجعلهم يقوموا في سنة 655هـ\1275م بمحاولة استعادتها، ولكنهم فشلوا في ذلك، ويقول ابن خلدون في هذا الشأن: "لما رجع الأمير أبو يحيى –

أبو بكر بن عبدالحق (642-656هـ\1245-1258م) - من حرب يغمراسن بسجلماسة، أقام أياما بفاس. ثم نهض إلى سجلماسة متفقدا ثغورها"، وعلى ما يبدو أنه فيما بعد اختلت الاوضاع قليلا داخل الدولة المرينية مما أدى إلى نجاح الزيانيين في السيطرة على سجلماسة سنة 663هـ\1265م وبقيت تحت أيديهم إلى أن قام السلطان المريني يعقوب بن عبدالحق باسترجاعها في سنة 673هـ\1274م بعد حصارها بجيشٍ مجهزٍ بمختلف الأسلحة الخفيفة والثقيلة(13).

وكذلك مما ساهم في بروز العلاقة السياسية وأثرها الحربى بين بني مرين وبني زيان تدخل كلا الطرفين في شؤون الأخر، وذلك بدعم المعارضة سواء كانت قبيلة أو شخصية معينة.

فقد قام الزيانيون باستقبال المعارضين للحكم المريني من أولاد الأمير أبي بكر بن عبدالحق. كما أنهم استقبلوا في سنة 688هـ\1289م أبا عامر الذي خرج عن أبيه السلطان يوسف بن يعقوب سنة 687هـ\1288م وذهب إلى مراكش وسانده في ذلك واليها محمد بن عطو البربري الجناتي، وكذلك احتضن بنو زيان ابنى الوزير يحيى الوطاسى عمر وعامر، بعد أن ثارا ضد المرينيين بحصن تازوطا ببلاد المغرب الأوسط سنة 691هـ\1291م، وتوجها فيما بعد إلى بني زيان وطلبا الحماية، ولقد حاول السلطان يوسف بن يعقوب القبض عنهما بأرسله في طلبهما من يغمراسن بن زيان، ولكن الأخير رفض تسليمهما، مما جعل المرنيين يوجهوا جيش لغزو تلمسان في سنة 689هـ\1290م. كما قام بنو زيان باستقبال الوزير المريني عبدالرحمن بن يعقوب وابن رحو وقائد الروم داخل الجيش المريني غنصالو اللذان خرجا عن السلطان سليمان بن عبدالله بن يوسف بن يعقوب (708-710هـ\1308-1310م) سنة 710هـ\1310م وطلبا منهم الحماية(14).

لقد تحول التأييد الزيانى للمعارضة المرينية إلى المجاهرة بتقديم الدعم الحربي لها وكان ذلك زمن أبى تاشفين بن عبدالرحمن، الذي قدم كتائب مقاتلة لأبي علي الذي خرج عن أخيه السلطان المريني أبا الحسن علي بن عثمان بن عبدالحق (731-749هـ\1331-1348م) سنة 733هـ\1332م، وانفرد بحكم سجلماسة.

ومن جهة أخرى قامت الدولة المرينية بزعامة السلطان يعقوب بن عبدالحق بتقديم المساعدة إلى قبيلة بنى توجين تلبية لاستغاثة اطلقتها على لسان اميرها محمد بن عبدالقوي[15] لرد ظلم الزيانيين بزعامة يغمراسن بن زيان، وكان ذلك سنة 670هـ\1271م[16]، وتكررت الاستغاثة في سنة680 هـ\1281م، وترتب على ذلك قيام المرينيين بتسليح قبيلة بني توجين، وضرب حصار على عاصمة بني زيان (تلمسان)، وعسكرتهم بالقرب من سكن بني توجين بجبل ونشريس بالمغرب الأوسط خوفا من أن يغدر بهم يغمراسن[17].

وكذلك استقبل المرينيون رموزا من المعارضة الزيانية، وقاموا بإيوائهم ودعمهم من أجل الثورة على الحكم الزيانى، ففي سنة 761هـ\1359م قدم السلطان المريني أبو سالم إبراهيم بن أبي الحسن (760-762هـ\1359-1361م) دعماً سياسيا وحربياً إلى المعارض أبى زيان محمد بن عثمان بن عبدالرحمن الزياني، لتولى حكم دولة بني زيان، والإطاحة بالسلطان أبى حمو الزيانى[18]، وفي سنة 774هـ\1372م قام المرينيون بمساندة الأمير إبراهيم أبا تاشفين ــ الذي تربى عندهم بعد هلاك أبيه ــ للوصول إلى حكم دولة بني زيان[19].

لقد ادت سياسة كلا الدولتين المرينية والزيانية إلى آثار وخيمة تحولت إلى مواجهة حربية كانت السيطرة فيها للدولة المرينية وذلك بحصارها لتلمسان ومحاولة تجويعها، هذا الحصار الذي تنوع ما بين قصر المدة وطولها.

ولان هذا الحصار يعتبر أثراً حربياً واضح للعلاقة السياسية القائمة بين المرينيين والزيانيين فإنه يستوجب الأمر تناوله بشئ من التفصيل. لقد اتبع المرينيون سياسة معينة لنجاح حصارهم لتلمسان وهي القيام بإخضاع مختلف المدن الواقعة على المنافذ المؤدية لمدينة تلمسان، وقاموا بإعادة ترميمها وذلك كما فعلوا في كل من: مدينة ندرومة[20] وتاوانت ووجدة وهنين[21] ووهران ومزغران ومستغانم وتنس وشرشال وبرشك والبطحاء ومازونة وونشريس ومليانة والقصبات والمدية وتازجدت[22].وبعد ذلك قاموا بحصار تلمسان وكان في البداية لفترات قصيرة كما حدث في سنة 670هـ\1271م بعد موقعة أيسلي، وفي سنة 680هـ\1281م بعد موقعة بخرزوزة، كما قاموا في الوقت نفسه بمحاولة ضرب اقتصاد بني زيان وتجويعهم عن طريق حرق وتخريب الحقول.

وفي مرحلة جديدة والتي كما يقال عنها آخر الطب الكى، فعندما لم يرى المرينيون نتائجاً واضحة وعلاجاً شافياً لما قاموا به، تحولوا إلى حصار تلمسان لفترات طويلة ومتقطعة حتى يسهل اقتحامها، وتتراوح مدة تلك الفترات من شهور إلى سنوات، مثل حصار سنة 689هـ\1290م الذي استمر فترة تقارب من الثلاثة شهور بداية من 25 جمادي الأخر إلى 20 رمضان من نفس السنة، أثناء حصار الجيش المريني لتلمسان عند موضع يطلق عليه ذراع الصابون[23]، كما تم في سنة 697هـ\1297م إعادة حصار تلمسان ثلاثة شهور أخرى وأقاموا حولها سور[24]، وبالتدريج زادت فترة الحصار لتلمسان حتى بلغت السنوات، ففي سنة 698هـ\1298م حاصر المرينيون تلمسان، وامتد ذلك إلى سنة 706هـ\1306م.

وخلال الحصار الأخير وحتى لاتكون نتائج الحصار عكسية على الجند المريني وحتى تتزعزع معنويات الجند الزيانى داخل تلمسان أمر السلطان يوسف بن يعقوب ببناء مدينة عسكرية مجاورة لتلمسان لزيادة الحصار قوة وشده[25]، حيث بني سكن الجند وقصر السلطان،

وفي سنة 702هـــ\1302م تم بناء سور حول المدينة الجديدة لحمايتها، ثم استكمل المرينيون بناء باقي المنشآت، وقد أطلقوا عليها اسم المدينة المنصورة[26] أو تلمسان الجديـــدة، ولقـــد أصـــبح السلطان المريني يستقبل فيها الوفود القادمة من الحجاز ومصر والشام وإفريقية.

استمرت المحاولات المرينية للإطاحة بتلمسان ما يقارب قرن من الزمن، وأخرها كـــان عند حصارها سنة 735هـــ\1334م، والذي انتهى بسقوطها سنة 737هـــــ\1336م[27]. وهكـــذا اضمحلت دولة بني زيان، وضعف دورها في المشاركة في أحداث بلاد المغرب، وخاصة فـــي الفترة من 737هـــ-749هـــ\1336-1348م والفترة من 754-759هـــ.\1353-1357م.

رغم ما تم الحديث عنه من علاقة سياسية ذات أثر حربى بين الدولتين المرينية والزيانية إلا أن العلاقة السياسية لم تكن دائما بذلك الاثر على الطرفين بل كان لها أثر سلمى، وســـاهمت في تهدئة الصراع بين الطرفين، حيث تم تبادل الهدايا والسفارات، ففي ســـنة 762هـــــ\1360م أرسل السلطان أبو حمو ابنه أبا تاشفين والشيخ أبي موسى عمران بن موسى أبرز مشايخ بنـــي زيان، ومعهم هدايا إلى نظيره المريني السلطان أبا سالم[28]. وكذلك بعث السلطان المريني أبـــو زيان بن أبي عبدالرحمن بن أبي الحســـن (763-767هـــــ\1362-1365م) فـــي ســـنة 764 هـــ\1362م هدية إلى أمير بني زيان أبى تاشفين[29].

## ثانيا: العلاقة السياسية وآثرها الحربى بين المرينيين والحفصيين.

برزت العلاقة السياسية بين هاتين الدولتين في فترة مبكرة من تاريخهما، وكان ذلك منذ تنصيب الخليفة الموحدي الناصر (595-610هـــ\1198-1213م)، لأبي محمد عبدالواحد ابـــن الشيخ أبي حفص على إفريقية لإدارة شؤونها سنة 603هـــ\1206م[30]، حيث أصبح الحفصيون يتبادلون حكم إفريقية، فبعد عبدالواحد تولي ابنه أبو زكريا يحيى، والذي كان من الطامعين فـــي

الانفصال نهائياً عن الدولة الموحدية، وزادت أطماعه بعد نكبة الموحدين في موقعة العقاب سنة 609هـ\1212م، ولقد تم الانفصال بشكل فعلى سنة 626هـ\1228م، حيث تذرع أبو زكريا يحيى بخروج الخليفة الموحدي إدريس المأمون عن تعاليم المهدي بن تومرت وقيامه بقتل المعارضين له من قبيلة هنتاتة[31]، لذا بدأ الامير الحفصي بالتوجه إلى التحالف مع قبائل زناتة وخصوصاً بني مرين، وهنا بدأت تبرز العلاقة بين الطرفين، وفي المقابل وفي وقت مبكر قام المرينيون بزعامة الأمير أبي بكر بن عبدالحق بالدعوة لبيعة الحفصيين، وكانت بداية ذلك في مكناس وفاس ونواحيها سنة 646هـ\1248م، لقد ترتب على توطد العلاقة السياسية أن قام الحفصيون بتقديم المساعدات الحربية لحلفائهم المرينيين[32]، فأثناء حصار السلطان المريني يعقوب بن عبدالحق لمراكش سنة 665هـ \1266م أرسل لنظيره الحفصي المستنصر يطلب منه المدد لإعانته على فتحها، وأرسل طلبه هذا مع وفد رفيع[33].ولقد رد المستنصر بسفارة مماثلة سنة 669هـ\1270م. وعلى هذا النهج سار الواثق بعد وفاة أبيه المستنصر من أجل توطيد علاقته بالمرينيين سواء بالسفارات، أوالهدايا، أو المساعدات الحربية [34].

استمرت العلاقة السياسية بين الدولتين وتبعها تبادل المساعدات الحربية فيما بينهما، ففى اثناء حصار المرينيين لتلمسان استنجد الزيانيون (زمن عثمان بن يغمراسن) بأمير[35] بجاية لفك الحصار[36]، هذا الامير الذي كان معروفا عنه معارضته للسلطان الحفصي محمد بن المستنصر أبي عصيدة، وفي المقابل قام الاخير بهجوم على بجاية للإطاحة بأميرها.وفي موقف آخر قام السلطان المريني يوسف بن يعقوب بطلب المساعدة من الأسطول الحفصي للإغارة على القواعد البحرية التابعة لبني زيان على ساحل البحر المتوسط (البحر الشامي) مثل هنين، ووهران[37].

لم تكن العلاقة بين الدولتين المرينية والحفصية متصلة دائما بل تخللتها فترات انقطـــاع، وذلك لانشغال كلاهما بشؤونه الخاصة، وتعتبر الفترة التي أعقبت وفـــاة يوســـف بـــن يعقـــوب المريني حتى عهد أبي سعيد عثمان الثاني أطول فترات الانقطاع.

بدأت العلاقة السياسية تعود لسابق عهدها نتيجة لأن الدولة الحفصية تعرضت إلى غـــزو زيانى نتج عنه السيطرة على عاصمتها تونس، حيث هرب السلطان الحفصي أبو يحيى أبي بكر خارجها، وقام بطلب المساعدة من المرينيين، وذلك بأن أرسل الـــيهم وفـــد حفصـــى(38) رفيـــع المستوى، وكان ذلك زمن السلطان المريني أبي سعيد عثمان، وكان جواب السلطان أبـــا ســـعيد لأبي زكريا ابن السلطان الحفصي: "والله لقد أكبر قومنا قصـــدك وموصـــلك والله لأبـــذلن فـــي مظاهرتكم مالي وقومي ونفسي ولأسيرن بعسكري إلى تلمسان فأنزلهـــا"، وبالفعـــل فـــي ســـنة 730هـــ\1329م سير أبو سعيد جيش استعاد به للحفصيين ملكهم في تونس(39).

اصبحت العلاقة السياسية تأخذ منحى جديد بين الدولتين، وذلك لدخولهما في مصـــاهرة ؛حيث تزوج الأمير أبى الحسن (أبن السلطان المريني أبى سعيد) مـــن فاطمـــة ابنـــة الســـلطان الحفصي أبي بكر(40)، ويمكن أن نطلق على هذا الزواج مصطلح (الزواج السياسي)، ويمكـــن أن نرجح سبب ذلك لأن السلطان الحفصي أصبح خائف من تخلل الضعف لدولته، لذا رأى أن مـــن الواجب تقوية جانبه بمصاهرة المرينيين، أما الدولة المرينية والتي مازالت في ريعـــان شـــبابها فهي لازالت تبحث عن التوسع والنفوذ، لذا أصبحت تبحث عن طريقة شرعية ترث بها أمـــلاك الحفصيين التي يتربص بها بنو زيان، لذا اخذوا المصاهرة ذريعة. حاول السلطان الحفصـــي أن يجني الثمار الحربية لهذه المصاهرة السياسية، وكان ذلك عندما قام بنو زيان بمهاجمـــة بجايـــة، حيث طلب النجدة من صهره السلطان أبى الحسن، والذي بدوره قام بفرض حصار على تلمسان سنة 732هـــ\1331م بعد رفض بني زيان التراجع عن مضايقة بجاية، كما قام بإرسال جـــيش،

وقطع بحرية لنجدة بجاية، وفعلاً تم لهم النصر[41].أما المرينيون فهم كذلك أرادوا أن يجنوا ثمار مصاهرة الحفصيين، حيث قام السلطان أبو الحسن بعد هلاك ابنه أبى مالك في حربه بالأنــدلس سنة 740هــ\1339م بتجهيز جيش لغزو النصارى بالأندلس جهاداً في سبيل الله، وثأراً لابنــه، وطلب من أصهاره الحفصيين إمداده بالسفن والجند، فأرسلوا له قوة بحرية تضم ستة عشر مــن أساطيل إفريقية مع قائد أسطول بجاية زيد بن فرحون، وخاض السلطان أبــو الحســن حروبــه بالأندلس وحقق انتصارات باهرة[42].

ظلت العلاقة السياسية موصولة بين الدولتين تدعمها المصاهرة إلى أن توفيــت فاطمــة الحفصية زوجة السلطان المريني أبى الحسن في موقعة طريف[43] سنة 741هـــــ\1340م بــين المرينيين والقشتاليين، حيث كسدت العلاقة المرينية الحفصية، واستمرت على هذا الحال إلى سنة 746هــ \1345م التي حاول فيها السلطان أبو الحسن مصاهرة الحفصيين ثانيــة، ولكــن هــذه المرة لم يوافق السلطان الحفصى أبا بكر بسرعة على ذلك، ونرجع ذلــك لــبعض الاحتمــالات منها: ربما يرجع لتأثره بموت ابنته فاطمة، أو انه شهد تسلل نوعٍ من الضعف للدولــة المرينيــة وذلك لهزيمة المرينيين في موقعة طريف سابقة الذكر، أو أن ابنته كبر عليهــا أن تــدخل بيــت أختها. وعلى كل حال بعد أخذ وردٍّ بين وفد السلطان أبى الحسن والسلطان الحفصي أبــي بكــر وافق على تجديد المصاهرة، وأُرســلت العــروس مــن تــونس مــع الوفــد المرينــي ســنة 747هــ\1376م. ولكن قبل وصول العروس إلى السلطان أبى الحسن بأيام توفي أبوها السلطان أبي بكر[44]، وترتب على ذلك صراع على الحكم داخل البيت الحفصي فتح الباب أمــام التــدخل المريني، مما أدى إلى تدهور العلاقة بين الدولتين.

فبعد وفاة السلطان الحفصي أبى بكر ظهر نزاع على الحكم بــين أبــى حفــص عمــر (السلطان الحفصي الجديد)، وأخيه أبي العباس احمد (ولي العهد الحفصــي)، وذلــك لأن الأول

استولى على العرش وقتل أخيه، مما أفسح المجال أمام صهرهم السلطان أبى الحسن للتدخل، حيث عاتب أبا حفص عمر على فعله، لأن أخاه هو أولى بالعرش، ومن ثمّ قام بتجهيز جيش لغزو إفريقية، وانطلق به من تلمسان سنة 748هـ\1347م، وتمكن من السيطرة على تونس، وقتل أبا حفص عمر في نفس السنة، وأصبح يدير شؤون إفريقية مثلها كباقي أملاكه ببلاد المغرب[45]، هنا بدأت العلاقة تأخذ منحياً جديداً لم نعهده من قبل.

إن التدخل المباشر للسلطان أبى الحسن في شؤون الدولة الحفصية، جعله يواجه اضطرابات في حكمه تسبب فيها جانبان هما: المعارضة الحفصية التي تزعمها أبو العباس الفضل ابن السلطان أبى بكر الحفصي، والنكبة التي تعرض لها أسطوله بسبب العاصفة. ولقد استغل الأمير أبو عنان فارس بن أبي الحسن بن علي هذه الاضطرابات لينفرد بالحكم عن أبيه، وكان ذلك سنة 749هـ\1348م، كل ذلك كان كفيلا بأن يخرج تونس من السيطرة المرينية[46].

منذ تدخل المرينيين في شؤون الدولة الحفصية أصبحت العلاقة السياسية تتصاعد وتحولت إلى العداء بين الدولتين، ولا نستبعد أن بني زيان لهم دور في تغذية حركات المعارضة الحفصية ضد المرينيين. كما انه في المقابل لم يعد سلاطين بني مرين ينظرون إلى الحفصيين على أنهم أصهار أو طرف مؤيد لهم بل نظروا إلى إفريقية كجزء من دولتهم، والواجب استرجاعها إلى طاعتهم، وهذا ما سار عليه السلطان أبو عنان (749-759هـ\1348-1358م) بعد وفاة أبيه سنة 749هـ\1348م، حيث قام بتجهيز جيش، وتوجه به إلى إفريقية وسيطرة على بجاية[47].

لقد ترتب على سياسة السلطان أبو عنان ظهور العديد من الثورات الحفصية، مثل ثورة سنة 753هـ\1352م ببجاية التي تزعمها الحاجب فارح من موالى الحفصيين[48]، وتمثلت مطالبها في عزل عمر بن علي عامل المرينيين على بجاية[49]، واسناد حكمها إلى صاحب

قسنطينة[50] أبي زيان ابن السلطان الحفصي أبى بكر، ولقد كان رد المرينيين علـــى الثـــوار أن قاموا بإرسال جيش إلى بجاية سنة 754هــ\1353م، وانتقم منهم.

وكذلك ظهرت بقسنطينة حركة تؤيد ثورة بجاية قامت بتنصيب الأميـــر تاشـــفين ابـــن السلطان أبي الحسن المريني (من معارضي أبى عنان) حاكماً على قسنطينة، وهذا أسلوب اتبعـــه الحفصيون، لتفريق كلمة بني مرين[51] وكسب جبهات مؤيدة لهم داخل الدولة المرينية.

إن تعدد الثورات وجبهات المعارضة في إفريقية جعل المرينيين يكثفون مـــن حملاتهـــم الحربية للسيطرة عليها، وأهم هذه الحملات كانت سنة 758هــ\1356م، المتجهة إلـــى حصـــار قسنطينة وبجاية ومن بعد الزحف على باقي إفريقية.

كانت هذه الحملة تسير في خطين بري وبحري، وتم تجهيزها بأسلحة ثقيلة وخفيفة أهمها الأنفاط الحارقة، وزودت بمعدات الحصار، كما شاركت فيها عناصر قتالية متنوعة تجيد العديـــد من فنون القتال، واستخدمت فيها الكثير من القطع الحربية مختلفة المهام.وفرض الحصار علـــى قسنطينة فسقطت في أيديهم، وأسر السلطان الحفصي أبي العباس احمد ابن أبي عبدالله بن أبـــي يحيى أبو بكر الموجود فيها، وتم نفيه إلى سبته، ثم لحقت بها بجاية، ومن نفس السنة تم السيطرة على تونس بعد حصارها بالقطع البحرية واقتحامها[52].

بعد تحقيق أبى عنان النصر في حملته على إفريقية، قام بالرجوع إلى فاس، وهنا استغل الوزير الحفصي أبو محمد عبدالله ابن تافراجين الوضع بالهجوم على تـــونس وطـــرد الحاميـــة المرينية منها وإعادة السيطرة الحفصية عليها[53].

761بدات في سنة هـــ\1359م تشهد العلاقة بين الدولتين في سنة نوعا مـــن التحســـن، وذلك لقيام السلطان المريني أبى سالم إبراهيم بإعادة السلطان الحفصي أبي العباس أحمـــد مـــن المنفي، وتسليمه مقاليد الحكم بتونس[54]، وتوقف التوسع المريني صوب إفريقية.

هذه العلاقة الحسنة التي أشرف عليها السلطان المرينى لم تدم طـويلاً، وذلـك لتغيـر الحكام، فبعد وفاة السلطان أبى سالم إبراهيم. أصبحت العلاقة المرينيـة الحفصـية ذات طـابع عدائي، وذلك لإيواء المرينيين عناصر معارضه للسلطان الحفصي أبى فـارس عـزوز، مثـل الأمير الحفصي أبى عبدالله محمد صاحب بونة (عنابه الحالية)، الذي لجأ إلى المرينيين بعد فشل ثورته على السلطان الحفصي، وكان ذلك زمن السلطان المريني المستنصر بالله عبد العزيز بـن أحمد بن أبي سالم (796-799هـ \1394-1397م)، والمستنصر بالله عبدالله بن أحمد بن أبـي سالم (799-800هـ \1397-1398م)، وأبي سعيد عثمان بن أبي العباس أحمد بن أبـي سـالم (800-823هـ\1398-1420)، بل إن هذا الأخير قام بتسليح المعارضة من القبائـل العربيـة بإفريقية ضد الحكم الحفصي، والتي كادت تسيطر على بجاية. كان رد الحفصيين علـى ذلـك قوياً، حيث قام السلطان. الحفصي أبو فارس بالقبض على أحد رؤوس المعارضـة وهـو أبـو عبدالله محمد وقطع رأسه وعلقه على أحد أبواب فاس نكاية في المرينيين، كما أنه تمكـن مـن إقناع القبائل العربية بإفريقية بالعدول عن استعانتهم بالمرينيين(55)، وهكذا قوى نفوذ الحفصـيين وزحفوا على تلمسان سنة 827هـ\1423م، كما أنهم جهزوا جيشاً للزحف على فـاس عاصـمة المرينيين، الأمر الذي جعل السلطان المريني عبد الحق بن أبي سعيد عثمان بـن أبـي العبـاس أحمد (823-869هـ\1420-1465م)، يرسل بيعته للسلطان الحفصي أبى فارس عزوز فقـال له: "إن البلاد بلادكم والسلطنة سلطنتكم وجميع ما تأمروننا به نمتثله"(56). ومن هذه الفترة لم تعد هناك أحداث ذات أهمية بين الدولتين.

وختاماً يمكن التوصية بالآتي:

1. أن السياسة تصنع السلم والحرب.
2. إنه كانت هناك علاقة سياسية بين الدولة المرينية ودولتى بنى زيان والحفصيين.

3. قوة السلطة الحاكمة في الدولة لها دور في مدى قوة علاقتها السياسية وآثرها الحربى، فعندما قوي نفوذ المرينيين تمكن سلاطينها من تصعيد العلاقة السياسية مع اعدائها وانعكاس كل ذلك على الجانب الحربى، وهذا نلحظه كذلك في غيرها من الدول مثل الزيانيين والحفصيين.
4. شهدت تلك العلاقة توتراً بين الدولة المرينية والدولة الزيانية ترتب عنها صدام حربى.
5. كان لدولة الموحدين دور في تصعيد التوتر السياسي بين الدولتين المرينية والزيانية، لأنها كانت تبث الفتن بينهما من أجل خدمة مصالحها وإطالة عمرها، ولقد ترتب على ذلك حروب بينهما.
6. ساهم بنو الأحمر بغرناطة في تصعيد العلاقة السياسية بين المرينيين والزيانيين.
7. شهدت العلاقة السياسية بين الدولة المرينية والدولة الحفصية تطوراً ترتب عنه تحالف حربى.
8. كان المراكز المهمة بالمغربين الأوسط والأقصى دور في توتر العلاقة السياسية بين الطرفين، حيث اصبحت بؤرة نزاع سياسى ترتب عنها تحشيد وحروب بينهما.
9. كشفت لنا العلاقة السياسية بين المرينيين والحفصيين الجانب الإيجابى في العلاقة السياسية وآثرها الحربى بين الدول، فلقد كانت العلاقة المرينية الحفصية دائما في تطور، حيث وصل بها الحال إلى المصاهرة، وتشكيل حلف مشترك بين هاتين الدولتين وقف ضد أيّ خطر يحدق بهما.

## هوامش البحث :

(1) مبارك بن محمد الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، المؤسسة الوطنية للكتاب، ج2، ص422.

(2) ابن خلدون عبد الرحمن (ت808هـ\1406م)، العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ضبط المتن والحواشي والفهارس خليل شحادة، راجعه سهيل زكار، دار الفكر، بيروت- لبنان، 142 هـ\2000م، ج7، ص111.

(3) المصدر نفسه، ج2، ص282.

(4) يحيى ابن خلدون، بغية الرواد في ذكر ملوك بني زيان، الجزائر، مطبعة بيير فونطانا الشرفية، 1321هـ\1903م، ج1، ص189.

(5) ابن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص229.

(6) إيسلي: مدينة في بسيط وجده وبها نهر يحمل نفس الاسم، وهي على مقربة من وهران. الحميري: أبو عبدالله محمد بن عبدالمنعم الصنهاجى (ت710هـ\1310م)، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، ط2، بيروت، مكتبة لبنان، 1984م، ص58.

(7) وجدة: مدينة ببلاد البربر بالمغرب، وهي من بناء الأفارقة، وتقع في سهل فسيح على بعد نحو أربعين ميلاً جنوب البحر المتوسط، وهي محاذية لصحراء أنكاد. الإدريسي: أبي عبيدالله، محمد بن محمد بن عبدالله(560هـ\1067م)، نزهة المشتاق في اختراق الافاق، مج1، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية.، ج1، ص222. الوزان: الحسن بن محمد

(ت944هـ\1537م)، وصف إفريقيا، ترجمه عن الفرنسية محمد حجي-محمد الأخضر، ج1، ط2، بيروت، 1983م، ج2، ص12-13.

(8) إسماعيل بن يوسف الخزرجي الغرناطي، المعروف بـ(ابن الأحمر)، تاريخ الدولة الزيانية، تحقيق: هانى سلامة، ط1، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، 1421هـ\2001م، ص65- 66.

(9) ابن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص112.

(10) ابن أبي زرع، أبو الحسن علي بن عبدالله الفاسى(ت741هـ\1340م)، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، مراجعة عبدالوهاب بن منصور، ط2، الرباط، المطبعة الملكية، 1999م، ص305.

(11) ابن زرع، المصدر السابق، ص235.، 236، 237.

(12) بسام كامل عبدالرزاق شقدان، تلمسان في العهد الزياني 633هـ - 962هـ\1235م – 1555م، (رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين، سنة1422هـ\2002م)، ص 95.

(13) ابن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص249.

(14) ابن زرع، المصدر السابق، ص381- 382.، 378- 379.394.

(15) تعتبر قبيلة بني توجين من القبائل الزناتية التي سكنت نواحي جبل ونشريس، وخدمة فترة تحت إمرة بني زيان، ولما قوى أمر بني مرين أصبح بنو توجين المؤيدين لهم، وعلى ما يبدوا أن مقر سكن بني توجين كان متاخماً لبني زيان، ويشكل خطراً عليهم، إضافة لكونهم

أنصار المرينيين، ابن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص208-209.لذا من الطبيعي أن تواجه هجمات من طرف بني زيان.

(16) ابن خلدون، المصدر نفسه، ج7، ص245.

(17) المصدر نفسه، ج7، ص245. 270.

(18) ابن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص146- 147، 167.

(19)ابن خلدون، المصدر نفسه، ج7، ص179.

(20) ندرومة: مدينة بالجزائر تقع شمال غرب تلمسان بينها وبين الساحل ثمانية كيلو مترات.ابن خلدون، المصدر نفسه، ج1، ص76.

(21) هنين: مدينة تقع شمال غرب تلمسان على ساحل البحر المتوسط.ابن خلدون، المصدر نفسه، ج1، ص76.

(22) ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص386.

(23) ابن خلدون، بغية، المصدر السابق، ج1، ص119.

(24) ابن خلدون، السابق، ج7، ص126.

(25) Roland Oliver: The Cambridge History Of Africa,.(Vol.3, Cambridge: Cambridge, University Press, 1977). : 356; Abun Nasin Op. Cit, 196-197.

(26) ربما سميت بهذا الاسم تفاؤلاً بالنصر على بني زيان.

(27) ابن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص341.أبي العباس احمد الخطيب المعروف بـ(ابن قنفذ القسنطينى)، أنس الفقير وعز الحقير، اعتنى بنشره وتصحيحه: محمد الفاسى وأدولف فور، المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط، 1965، ص70

(28) السلاوي: أبو العباس أحمد الناصري(ت1315هـــ\1897م)، الاستقصـــاء لأخبـــار دول المغرب الأقصي، تحقيق وتعليق احمد السلاوي، ج4، وزارة الثقافـــة والاتصـــال، 2001م، ص136.

(29) ابن خلدون، بغية، المصدر السابق، ج1، ص131.

(30) ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص334.

(31) هنتاتة: قبيلة بربرية إحدى بطون مصمودة، ومنها يتفرع الحفصيون. وموطنها الأصـــلي جبال أطلس الكبير أو درن.ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص360.

(32) ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص380. 381، ج7، ص228. 229. 240.

(33) يتكون الوفد من: عامر بن إدريس بن عبدالحق(ابن أخى يعقوب) وعبدالله بن كنـــدوز(من بني زيان وكبير قبيلة بني كمى) والكاتب أبى عبدالله الكتاني.ابن خلدون المصـــدر الســـابق، ج7، ص240.من هذا الوفد نفهم مدى أهمية ما يطلبه يعقوب من الحفصيين.وهذا يشير إلى الدبلوماسية العالية التي تميز بها المرينيين، وخاصة في المجال الحربي.

(34) ابن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص240.

(35) أبو زكريا بن أبي إسحاق بن أبي محمد عبدالواحد.

(36) بجاية: مدينة تقع على ساحل البحر بين إفريقية والمغرب، وتســـمى الناصـــرية أيضـــاً. الحموي: شهاب الدين أبي عبدالله ياقوت بن عبدالله (626هـــ\1228م)، معجـــم البلـــدان، بيروت، دار صادر، 1977م، ج1، ص339.

(37) ابن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص297، 298.

(38) يتكون الوفد من ابنه أبى زكريا والشيخ ابن تافراجين أشهر الـوزراء الحفصـيين. أبـي عبدالله محمد بن إبراهيم المعروف بـ(الزركشي)، تاريخ الدولتين الموحديـة والحفصـية، تحقيق: محمد ماضور، ط2، المكتبة العتيقة، تونس، 1966م، ص55- 56.

(39) الزركشى، المصدر نفسه، ص55- 56.

(40) الزركشي، المصدر نفسه، ص56.

(41) ابن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص335- 336.

(42) هنا نلاحظ أن عمر الأمير أبى مالك يتراوح مابين 8-9 سنوات، ـ أي من سنة 731هـ وهي السنة التي تزوج فيها أبو الحسن إلى سنة 740هـ وهي السنة التي ولى فيها ابنه أبـا مالك قيادة حروب الأندلس ـ، وهو صغير جدا على أن يكلف بقيادة جيوش للحـرب علـى ارض النصارى، ولكن نتيجة خطأ توليته القيادة المرينية كان نتيجته بأن لقـي أبـو مالـك حتفه.ابن خلدون، المصدر نفسه، ج7، ص345.السلاوي، المصدر السابق، ج4، ص133.

(43) طريف: جزيرة بها مدينة صغيرة تقع على البحر الشامي (المتوسـط) فـي أول المجـاز المسمى الزقاق ويتصل غربيها ببحر الظلمات (الأطلسي)، ويشقها نهر صغير، ومن طريف إلى الجزيرة الخضراء ثمانية عشر ميلا، وسميت طريف بهذا الاسم نسبة إلى القائد طريـف مولى موسى بن نصير (ت 97هـ\716م) الذي نزلها أول الفتح.الحميري، المصدر السابق، ص392.

(44) ابن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص347، 354.

(45) الزركشي، المصدر السابق، ص69.

(46) الزركشى، المصدر نفسه، ص66-67-. 71-72.

(47) ابن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص383.أبي عبدالله الشيخ محمد الباجي، الخلاصة النقية في أمراء إفريقية، ط2، مطبعة بيكار وشركائه، تونس، 1323هـ، ص75.

(48) وهذا لم يحرض على الثورة حبا في الحفصيين بل لأنه كان له نفوذ على أبي عبدالله محمد ابن الأمير أبا زكريا الحفصي صاحب بجاية، وعند تسليم الأخير بجاية للمرينيين انتهى نفوذه ومصالحه التي يسعي لتحقيقها. ابن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص384.

(49) لم تؤيد صنهاجة حبا في الموحدين أو الحفصيين، بل طمع في استعادة ملكهم ببجاية التي استقروا بها من زمن بعيد وعند مجي الموحدين والحفصيين اقطعوهم أملاك بجاية، وعند سيطرت المرينيين على بجاية نتقلص نفوذ صنهاجة ببجاية، لذا أشعلوا نار الثورة ضد المرينيين. ابن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص384.

(50) قسنطينة: هي مدينة قديمة أسسها الفينيقيون، وخربت في العصر الروماني، وأعاد بنائها الإمبراطور البيزنطي قسطنطين الأول، ومنذ ذلك الوقت سميت قسنطينة، تعاقب عليها دول إسلامية مثل الحماديين والحفصيين، وهي من امنع المدن بإفريقية ولايناظرها في ذلك إلا مدينة رندة بالأندلس.مؤلف مجهول (كان حياً في القرن 8هـ)، الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتعليق سعد زغلول عبدالحميد، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة.أفاق عربية، ص165-166. الإدريسي، المصدر السابق، ج1، ص265-266. ابن الخطيب، : لسان الدين أبو عبدالله محمد السلماني(ت776هـ\1374م)، أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام، تحقيق مختار العبادى، محمد ابراهيم الكتاني، القسم 3، الدار البيضاء، دار الكتاب، 1964م، هامش ص70.

(51) ابن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص384–385 387.

(52) ابن الحاج النميري، فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب، دراسة وإعداد د. محمد بن شقرون، ط1، ، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990م، ص225، 224. 72.

(53) النميري، المصدر نفسه، 357.

(54) أبو العباس أحمد بن الحسين بن علي بن الخطيب ابن قنفذ القسنطينى، الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، تحقيق: محمد الشاذلي وعبدالمجيد التركي، الدار التونسية للنشر، تونس، 1968م ص184،

(55) الباجي، المصدر السابق، ص79.

(56) الزركشي، المصدر السابق، ص125.